عمود تفكّر.

بقلم
لورانس سمولْمان

هل

من فكرة أجلّ وأعظم من تلك التي تُولد من رحمها الأمم؟ مجلة «تفكّر.» تلقي الضوء على كتاب «Jassim the Leader, Founder of Qatar» (جاسم القائد، مؤسّس دولة قطر)، السيرة الصادرة حديثاً بقلم الشيخ محمد آل ثاني.

بعد انصرام قرن من الزمان على وفاة الشيخ جاسم المؤسّس، تأتي هذه السيرة المشوّقة التي تملك على القارئ جوارحه في حينها لتبعث إلى الوجود رجل دولة طالما حجبت ضياء مسيرته سجف التغافل والنسيان، ذلك القائد صاحب الأثر الملموس في الدراما الإمبريالية المتصاعدة في القرن التاسع عشر. يعرض الشيخ محمد آل ثاني ببراعة وإتقان سيرة الشيخ جاسم بعد فراغه من سوق توصيف مقتضب ورشيق لتاريخ دولة قطر حتى ثلاثينيات القرن التاسع عشر. وفي عبارة صريحة دونما أي إلماعة أو تعريض يلمسه القارئ: فقد ولد جاسم في ربوع أرض ممزقة مارس عليها البريطانيون والعثمانيون من الدسائس والمكائد ما وأدوا به أي بصيص أمل لبزوغ فكرة قد تجول بخاطر أحدهم عن تحقيق السيادة أو الاستقلال.

لم ينغمس المؤلف كثيراً في الحديث عن إنجازات الشيخ جاسم الشخصية بوصفه رجل قبيلة ومعتقل سياسي وشاعر، وإنّما ظلّ مستمسكاً بلقب الرجل الحقيقي — جاسم «القائد». لم يكن الشيخ جاسم أول من طرقت ذهنه صورة قطر الدولة فحسب، بل كان أيضاً أول من أتاح القدرة السياسية والعسكرية كيما تستحيل حقيقة وواقعاً. فقد فطن إلى ذلك البون الشاسع من الاختلافات التي تفصل بين أبناء تلك البقعة شبه الجزرية من جماعات مستقرة وقبائل مرتحلة، كما تبيّن السبيل إلى دحض فُرقتهم وتأسيس صرح وحدتهم من خلال رسوخ اليقين وقوة السلاح. فبحسب قول المؤلف الشيخ آل ثاني، لم تكن السيادة آنذاك عطية تُمنح، وإنّما كانت سلطة تُنتزع.

ويسوق المؤلف دلائل صدق قوله، ليكشف لنا أنّ مدينة الدوحة، تلك الواحة الهادئة الساكنة التي نراها اليوم، لم تكن على تلك الحال البتة في القرن التاسع عشر. فقد تعرّضت المدينة للقصف خمس مرات من أسطولين بحريين مختلفين، وذاقت الويلات من القبائل المغيرة، بل وتقطّعت السبل بأبنائها إذ حيل بينهم وبين آبار المياه ومصادر الثورات. فأضحى لزاماً لتحقيق حلم الوحدة ظهور شخصية بارزة تتحلّى بسمات مميّزة، وكان الشيخ جاسم هو ذاك الرجل. وعلى الرغم من انتمائه إلى عائلة تمتهن التجارة، يبيّن لنا آل ثاني كيف تدثّر الشيخ جاسم بأسلوب حياة البدو واتّشح لباسهم، وخبَر طرائقهم. غير أنّه ظلّ أيضاً متشبّثاً بجذوره المدنية كي يشحذ مهاراته السياسية ويتقن استخدام أدواتها في قيادة أمة ودرء خطر إمبراطورية عظيمة مترامية الأطراف.

يبدو جلياً من هذا العمل البسيط في أسلوبه والمصوغ على أساس علمي في الوقت ذاته أنّ مؤلفه آل ثاني قد نقّب في فيض غزير من المذكّرات والتقارير والمراسلات في دور المحفوظات القطرية والتركية والبريطانية لكي يعيد إحياء الشيخ جاسم في شخصيته الحقيقية، وهنا تكمن أهمية هذه السيرة. وفضلاً عن ذلك فثمّة عناصر شخصية عدة تكسب كتابه قيمة فريدة — لاسيما ترجمة بضعة أبيات فقط (للأسف الشديد) من شعر الشيخ جاسم، وذكّر جانب من علاقته الوديّة والمتوترة كذلك مع والده، وتجسيد متقن وبارع لشخصية الباحث الإنجليزي العربي ويليام جيفورد بالجريف الذي عانى بعض الشئ على أيدي المؤرخين البريطانيين إلى يوم الناس هذا.

ورغم كونه سليل عائلة الشيخ جاسم، لم ير آل ثاني أية غضاضة في تناول موضوعات أكثر حساسية — قضية الرق وإعجاب الشيخ جاسم بالحركة السلفية، وحتى دعمه المستتر لتهريب السلاح. إدراج مثل هذه القضايا ضمن السياق الملائم يضفي مسحة الواقع «بعلّاته» على كتاب بذل مؤلفه الوسع في البحث والتحقيق.

خرجت دولة قطر من عزلتها النسبية بسرعة البرق، فبزغ نجمها وطبّق ذكرها الآفاق. وبالنظر إلى تكرارية تصدّر اسمها عناوين الصحف اليوم، يصعب تصديق أنّه لم يُذكر اسم واحد من أمرائها في الصحف الغربية حتى العام ١٩٣٥. بيد أنّه في حين كان الشيخ جاسم مستلقياً على فراش الموت، لم يكن ثمّة بلد آخر في منطقة الخليج قد نال اعترافاً باستقلاله من حكومة صاحب الجلالة في لندن والباب العالي في اسطنبول. لقد وضع الشيخ جاسم هذه الدولة الحديثة نسبياً على أول الدرب لإحراز المكانة والثراء وتحقيق التنمية، فباتت محل غبطة الناظرين. وفي ثنايا هذا السرد لسيرته، يوضّح لنا الشيخ آل ثاني كيف اضطلع المؤسّس بهذا الدور، كما يُبرز أمامنا إنجازاته الحقيقية إلى جانب مواطن ضعفه، ويعقد بينهما مقارنة مشوّقة للغاية. ولعلّ الطبيعة الإمبريالية التي اتّسم بها ذلك العصر الذي عاش فيه الشيخ جاسم لا تختلف كثيراً عن تلك التي تحياها البلاد في زماننا الحاضر. ●

لورانس سمولْمان محرّر أول لدى قناة الجزيرة. كتاب «Jassim the Leader» من منشورات شركة Profile Books